الفصل الثالث

وسائل الوقاية من الأمراض النفسية

- المبحث الأول : الإكثار من الطاعات وتجنب المعاصى
- المبحث الثانى : استحضار الإيمان بقضاء الله وقدره
- المبحث الثالث : الدعاء والتوكل مع الأخذ بالأسباب
- المبحث الرابع : ذكر الله بالقلب واللسان
- المبحث الخامس : نصوص من الكتاب والسنة تطرد الوساوس وتطمئن القلوب

المبحث الأول

الإكثار من الطاعات وتجنب المعاصى

قال تعالى عز وجل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

قال الإمام فخر الدين الرازى - رحمه الله تعالى - ضمن تفسيره لهذه الآية الكريمة : « واعلم أن عيش المؤمن فى الدنيا ، أطيب من عيش الكافر لوجوه » :

أحدها : أنه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله تعالى ، وعرف أنه تعالى محسن كريم ، لا يفعل إلا الصواب ، كان راضياً بكل ما قضاه وقدره ، وعلم أن مصلحته فى ذلك أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول فكان أبدا فى الحزن والشقاء » .

ثانيها : أن المؤمن أبداً يستحضر فى عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها وعلى تقدير وقوعها يرضى بها ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، فعند وقوع المصائب لا يعظم تأثيرها فى قلبه » .

ثالثها : أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى ، والقلب إذا كان مملوءا من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة ، بسبب أحوال الدنيا ، أما قلب الجاهل ، فإنه خال عن معرفة الله تعالى ، فلا جرم يصير مملوءا من الأحزان الواقعة ، بسبب مصائب الدنيا .

رابعها : أن المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة فلا يعظم فرحه بوجدانها ، وغمه بفقدانها .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٧ .

خامسها : أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا واجبة التغير سريعة التقلب فلولا تغيرها ، وانقلابها لم تصل من غيره إليه » [1] .

لقد حلل الإمام الرازى - رحمه الله تعالى - شخصية المؤمن فى تفسيره للحياة الطيبة التى تكون ثمرة العمل الصالح كما فى الآية الكريمة نعم إن شخصية المؤمن ، من مكوناتها الأساسية ، وسماتها البارزة الإيمان ، والعمل الصالح ، وهذان المكونان ، أو العنصران هما الوقاية الفعالة والحمية القوية ، من الأمراض النفسية التى يصاب بها ، من افتقدهما ، فماذا يعنى الإيمان ، والعمل الصالح ، لكى يكونا سياجا مانعاً من الوقوع فى شرك القلق النفسى ، والتوتر العصبى ، والحزن المرضى ، والخوف بلا مبرر ، والاكتئاب النفسى المدمر وغيرها من الأمراض التى يقف الطـــب الحديث حيالها عاجزاً مكتوف اليدين :

(أ) **الإيمان**: ونعنى به هنا الإيمان القائم على العلم بالله تعالى وبصفاته ، فكلما كان علم العبد بالله قويا ، كان إيمانه بربه قويا وانعكس ذلك على أخلاقه وسلوكه كما قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل وقد كان ﷺ أعلم الخلق بربه، كما قال فى حديث ما معناه ، « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم إياه » . ذلك أنه بقدر علمه بربه ، تكون خشيته ، وتقواه .

والقرآن الكريم حصر حقيقة الإيمان فى مؤمنين تحقق فيهم أخلاق حية وأعمال وعبادات تؤكد صدق إيمانهم ، قال عز وجل . ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٩ . (٢) سورة الأنفال : الآيات ٢ - ٤ .

اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (١)

وهؤلاء المؤمنون بالشروط والأخلاق التى تميزوا بها هم المؤمنون الذين لن يتأثروا بأحزان ، ومصائب ، وكوارث الدنيا ، بل إن هذه المحن جميعاً لا تزيدهم إلا إيماناً وتثبيتاً ويقينا لأن إيمانهم هذا ، وعلمهم بربهم سبحانه ، ومحبتهم إياه هى الحمى والسياج المتين ضد كل مرض نفسى مثل القلق والاكتئاب . والخوف من المستقبل ، ولأنهم بإيمانهم الراسخ والثابت علموا أن ثواب أى مصيبة أكبر منها . ولذلك قال بعض السلف الصالح من الذين ينطبق عليهم وصف الإيمان الحقيقى « وما أصبت فى دنياى بمصيبة إلا رأيت لله فيها ثلاث نعم : أنها لم تكن فى دينى ، وأنها لم تكن أكبر منها ، وانني أرجو ثواب الله عليها » (٢) .

وربما هذا ما يعنيه الإمام الرازى بقوله : « إن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى ، والقلب ، إذا كان مملوءا من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا » .

أجل إن الإيمان الحقيقى جدير بأن يكون للمؤمنين سفينة محكمة ذات ربان حكيم، فى بحر عميق متلاطم الأمواج والأنواء والعواصف والأعاصير .

كما أن الأنسان اليقينى الإيمان على خبرة جيدة بطبيعة الدنيا وأنها دائمة التقلب ، والتحول ، من سره زمن ساءته أزمان أو كما وصفها شاعر فأجاد الوصف :

جبلت على كدر وأنت تريـــــــــدها

صفوا من الآلام والأكـــــــــدار

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١ - ٦ .

(٢) الإيمان والحياة د . يوسف القرضاوى .

ومكلف الأيام ضد طبـــــــاعها

متطلب فى المـــــــــاء جذوة نار

(ب) العمل الصالح : إن القرآن الكريم لم يصف الإيمان إلا معطوفاً بالعمل الصالح ، حتى ذهب بعض العلماء أنهما أى الإيمان والعمل الصالح شىء واحد . والعمل الصالح هو تقوى الله تعالى وطاعة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام . بمعنى اتباع صراط الله المستقيم ، وهدى نبيه ﷺ .

فالعمل الصالح هو تصديق وتأكيد للإيمان .

فمن الطاعات الواقية من الأمراض النفسية : الصلاة فقد كان ﷺ : إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وكان يقول لمؤذنه بلال رضي الله عنه . « أرحنا بها يا بلال » . لأن المصلى يكون فى حمى الله وكنفه ، ومن كان فى حماه وكنفه سبحانه فقد أصبح فى مأمن وملاذ وملجأ من شر ما خلق وذرأ وبرأ .

وكما قال بعض العلماء إن الصلاة تجمع أركان الإسلام الأربعة وهى الصلاة . والصوم والشهادتين ، والحج ، لأن المصلى ممتنع عن الطعام والشراب فهو فى صوم ، وناطق بالشهادتين أثناء صلاته ، كما أنه مستقبل بيت الله الحرام فهو فى حج هذا البيت ، والصلاة علاج ووقاية من الخوف والحزن كأمراض نفسية يقول عز وجـــل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

كما أن العبادات الأخرى مثل الصوم والزكاة والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعيادة المريض وإفشاء السلام وغيرها تؤكد صلة العبد بربه ، وتجعله فى معية ذى الجلال والإكرام ، ومن كان فى معيته تباركت أسماؤه فلن يمسسه سوء لأنه فى سكينة نفس وطمأنينة قلب .

* * *

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٧ .

المبحث الثانى

استحضار الإيمان بقضاء الله وقدره

يقول الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ واللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١) .

إن إيمان الإنسان لا يوثق عراه ولا يكتمل إلا إذا آمن ورضى بالقضاء والقدر خيره ، وشره ، حلوه ومره .

ومعنى الإيمان بالقضاء والقدر أن يعتقد الإنسان أن كل ما يصيبه من شر وخير فى نفسه أو ماله ، أو أهله قضى به فى اللوح المحفوظ . فما قدر كان وهو خير له وإن بدا شراً لأن المؤمن كما يقول المبعوث رحمة للعالمين أمره كله له خير « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمـــره كله له خير - وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » (٢) .

كما أن إيمان المرء لا يكون كاملاً ، إلا بالاعتقاد اليقينى أن الابتلاء بالشدائد ليس مهانة للمبتلى ، وأن الابتلاء بالسراء ليس كرامة ، أو كما قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ « إن حصول النعمة فى الدنيا ، وحصول الآلام فى

---

(١) سورة الحديد : الآيات ٢٢ ، ٢٣ (٢) مسلم .

الدنيا لا يدل على الاستحقاق فإنه تعالى كثيراً ما يوسع على العصاة والكفرة ، إما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وإما بحكم المصلحة ، وإما على سبيل الاستدراج والمكر ، وقد يضيق على الصديقين لأضداد ما ذكرنا ، فلا ينبغى للعبد أن يظن أن ذلك لمجازاة » (١) .

سئل رسول الله ﷺ : « أى الناس أشد بلاء فقال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان رقة ابتلاه الله حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » (٢) .

نعم إن الإنسان فى هذه الحياة المشوبة بالأكدار ، والمحن والمصائب لا يمكنه أن يستمر برباطة جأش ، قوى العزيمة ، والإرادة ، يواجه كل صعوبة مهما كانت مستعصية - إلا إذا كان قلبه ، وعقله ، ووجدانه · يعمرها الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره خيره وشره ، حلوه ومره ·

فالمصيبة مادامت دنيوية تكون هينة ، فهى عما قليل إلى زوال ، وقد علمنا نبينا محمد ﷺ أن نتضرع إلى الله تعالى بالدعاء قائلين : « اللهم لا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » وقد كان السلف الصالح والتابعون بإحسان إلى يوم الدين خير خلف لنبيهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه الأشداء على الكفار الرحماء بينهم رضوان الله تعالى عليهم ·

فهذا عروة بن الزبير « أحد فقهاء التابعين فى الإسلام مثل صالح للمؤمن الصابر الراضى · المقدر لنعم الله ، فقد رووا أن رجله وقعت فيها الأكلة فقرر الأطباء قطعها ، حتى لا تسرى إلى ساقه كلها ثم إلى فخذه ، وربما ترقت إلى الجسد فأكلته · فطابت نفسه بنشرها، فعرضوا عليه أن يشرب شيئا يغيب عقله ،

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٦ ·

(٢) الترمذى

حتى لا يحس بالألم ، ويتمكنوا من قطعها فقال : ما ظننت أن أحدا يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل . ولكن هلموا فاقطعوها ، فقطعوها من ركبته وهو صامت لا يتكلم ، ولا يعرف أنه أنّ (اشتكى) .

« وشاء القدر أن يبتلى الرجل على قدر إيمانه ، ففى هذه الليلة التى قطعت فيها رجله سقط ابن له - كان أحب أولاده إليه - من سطح فمات فدخلوا عليه فعزوه فيه . فقال : اللهم لك الحمد ، كانوا سبعة ، فأخذت واحدا وأبقيت ستة ، وكان لى أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثه ، فإن كنت أخذت فلقد أعطيت ، ولئن كنت قد ابتليت فلقد عافيت » (١) .

ذلك هو النموذج الإيمانى الفريد الذى استنار بنور مشكاة النبوة المحمدية ، وارتوى من نبعها الثر الذى لا ينضب معينه .

وفى عصرنا الحاضر نموذج مضاد لذلك النموذج العظيم ، فى عصرنا نموذج رموا أو اداروا ظهورهم للإيمان بالقضاء والقدر ، إنهم كما وصفهم القرآن الكريم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِه ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (٢) .

لقد كثر فى عصرنا ، المصابون بالهم والحزن واخترع علم النفس لهذا المرض اسما هو « الاكتئاب » نعم لقد انتشر هذا المرض انتشاراً واسعاً ، فلقد « قيل أن نحو ثلاثة أو أربعة من بين كل ألف من الناس يعانون من الاكتئاب » ، وهذا العدد الضخم من ضحايا الاكتئاب كان الفرصة الذهبية ، والكنز الذى لا ينفد لأصحاب المصانع الذين أنتجوا الملايين من العقاقير

---

(١) الإيمان والحياة د . يوسف القرضاوى .

(٢) سورة الحج : الآية ١١ .

المهدئة ، والمنومة ، والمسكنة لهذا المرض اللعين - الذى لا علاج له سوى الاستمساك بحبل الله المتين - واستخدام هذه العقاقير بإسراف جنونى أدى بهؤلاء المرضى إلى الإدمان الذى لافكاك منه ، الإدمـــان المدمر للصحة العضوية ، والنفسية ، بل بعض حالات الإدمان يصل بالمريض إلى الانتحار إذا يئس من الشفاء .

* * *

المبحث الثالث

الدعاء والتوكل مع الأخذ بالأسباب

لقد أسلفنا القول أن الإسلام دين يؤمن ويدعو إلى التمسك بالأسباب ، كوسيلة لتحقيق ما يصبو إليه المسلم من أهداف ومقاصد .

كما يؤمن أيضاً بعدم فاعلية هذا السبب وحده ، ما لم تواكبه وتؤازره المشيئة الإلهية . ولذلك طولبنا بالدعاء والالتجاء والركون والاعتصام بحبل الله المتين ، كما وعدنا سبحانه ، تباركت أسماؤه بالاستجابة إلينا ، إذا دعوناه مخلصين له الدين فقال عز وجـــل : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى اسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٢) .

ولقد كانت حياة الأنبياء والصالحين ، والصديقين قرآنا يمشى على الأرض فقد جاهدوا فى الله حق جهاده ، وصابروا ، وصبروا ، وتضرعوا إلى الله تعالى عز وجل مناجين إياه ، منيبين إليه ، مستغفرين ، تائبين ، ملتمسين الفرج والنصر ، والرحمة منه سبحانه الرحمن الرحيم .

فهذا سيد الخلق ، وأعلم الخلق بربه ، وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ كم لاقى وعانى ، وقاسى ، فى سبيل دعوته ونشر رسالته .

فبعد موت عمه أبى طالب بن عبد المطلب ، ثم زوجه خديجة بنت خويلد ، أول من آمنت برسالته من النساء ، صادفته صنوف من الأذى كثيرة ، فخرج عليه الصلاة والسلام إلى الطائف لاخوفا من إيذاء قريش ، وإنما لعله

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٦ . (٢) سورة غافر : الآية ٦٠ .

يجد فى الطائف أذنا صاغية ، وقلبا واعيا لنداء السماء إلى الأرض ، ولكنه ﷺ وفى الطائف أيضاً ، لاقى الصدود ،والجفوة ، وجد أشراف الطائف من يقول له « أخرج من بلدنا » ، وأغروا به سفهاءهم ، فوقفوا له سماطين[1]، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج فى رأسه ، فانصرف راجعاً من الطائف إلى مكة محزونا ، وفى مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهور دعاء الطائف « اللهم أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على ، فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ، ولا قوة إلا بك » [2] .

« فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال ، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة ، وهما جبلاها ، اللذان هى بينهما فقال : لا بل استأنى بهم ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده ، لا يشرك به شيئاً » [3] .

« وأقام بنخلة أياما ، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك يعنى قريشاً ، فقال ﷺ ، « يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجاً وإن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه » [4] .

هذا هو منهج الإسلام ، فى معالجة كل ما يعترض الإنسان فى حياته من مشكلات ، وأزمات · وعقبات · منهج قائم على مواجهة الأزمة بالأساليب والوسائل العملية بالإضافة إلى التوكل عليه سبحانه والاستعانة به بالدعاء والتبتل إليه · والقرآن الكريم يقص علينا الكثير من قصص الأنبياء ، والمجاهدين والصابرين الذين ابتلوا بالبأساء ، والضراء ، فلم يهنوا ، ولم يضعفوا ولم يستكينوا بل اتخذوا الأسباب مع التفويض ،والتوكل ، والدعاء ·

---

(١) صفوفا · (٢) زاد المعاد لابن القيم جـ ٢ ·
(٣) المصدر السابق · (٤) المصدر السابق ·

● فسيدنا يعقوب عليه السلام ، حين أخبر أن ابنه الحبيب إلى قلبه وفلذة كبده ، أكله الذئب ، لم يجزع ، ولم يتبرم ، ولم يصرخ ، ولم يسخط وإنما قال لمن حمل اليه هذا الخبر المفجع المبكى والمحزن ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾[1] ، « عن الحسن أنه سأل النبي ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ . فقال: « صبر لا شكوى فيه ، فمن بث لم يصبر » ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾ ، وقال مجاهد فصبر جميل ، أى من غير جزع »[2] .

وامتدت بالشيخ المكلوم سيدنا يعقوب عليه السلام السنوات والسنوات ثقيلة بطيئة ، والقلب المجروح تواق ، ومشتاق ، وملهوف إلى لقاء الحبيب ولكن هذا اللقاء الحبيب المرتقب لا يأتى ، وإنما الوالد الشيخ يبتلى بفقد ابنه الآخر الحبيب أيضاً ، ولكن الكريم بن الكريم بن الكريم ، لم يهتز ولم يستبد به الخوف ، ولم يقل كما قال بعض الجزعين :

وحملت زفرات الضحى فأطقتها

ومالى بزفرات العشى يدان

وإنما قال وكله إيمان وثقة وحسن ظن بالله تعالى ، قال سيدنا يعقوب عليه السلام بعد أن ابتلى بغياب ولده (بنيامين) بعد غياب أخيه يوسف عليه السلام سنوات عديدة : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[3] .

وقد استجاب الله تعالى لدعاء سيدنا يعقوب عليه السلام ، فأعاد إليه بصره ، والتقى بأبنيه الحبيبين ، جزاء لصبره وتفويض أمره إلى لله تعالى .

* * *

(١) سورة يوسف : الآية ١٨ .
(٢) مفاتيح الغيب جـ ٩ .
(٣) سورة يوسف : الآية ٨٣ .

المبحث الرابع

ذكر الله بالقلب واللسان

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) .

ولقد كان ذكر الله تعالى سبباً فى اطمئنان القلوب ، لأن من يذكر الله عز وجل ، فإن الله سبحانه سيذكره ، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ (٢) . وذكره سبحانه لعبده الذاكر يعنى : « ذكره بالإحسان والرحمة والنعمة فى العاجلة والآجلة » (٣) . ومن منّ الله تعالى عليه بالإحسان والرحمة والنعمة فى العاجلة والآجلة ، تمتع بسكينة القلب ، واطمئنان النفس ، وراحة الضمير والوجدان ، ولأن الذاكرين الله تعالى فى معية ذى الجلال والإكرام ، وفى حمى المليك المقتدر ، ومن كان فى معيته عز وجل ، أنزل عليه سكينته .

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، يقول لصاحبه وحبيبه ﷺ وهما فى الغار - خائفاً لا على نفسه ، وإنما على من بعث رحمة للعالمين يقول : « لو أن أحدهم نظر إلى قدميه ، لأبصرنا ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول له مهدئاً من روعه ﴿ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ (٤) ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ .

فأعقبت هذه المعية الآلهية السكنية الربانية التى نزلت على قلب الصديق رضي الله عنه : ﴿ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨ .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٥٢ .
(٣) مفاتيح الغيب جـ ٢ .
(٤) سورة التوبة : الآية ٤٠ .
(٥) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

نعم إن السكينة نزلت على الصديق أبى بكر رضي الله عنه - كما يقول الإمام فخر الدين الرازى وليس على الرسول صلوات الله وسلامه عليه -- لأنه كما قال الإمام الرازى لم يكن خائفاً : « لأنه لو كان الأمر كذلك ، لما أمكنه أن يقول لأبى بكر : « لا تحزن إن الله معنا » فمن كان خائفاً كيف يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره » (١) .

وذكر الله تعالى الدواء والعلاج الشافى ، والواقى من جميع أمراض النفس كالقلق · والخوف ، والحزن ، والاكتئاب ، وغيرها من الاضطرابات النفسية والعصبية - ذكر الله تعالى يكون بالقلب واللسان · والجوارح - فالذكر القلبى هو التفكر، والتدبر، والتأمل فى مخلوقاته عز وجل الدالة على قدرته ، وحكمته ، وعظمته سبحانه ، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيات لأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنوبهمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

- أما الذكر بالجوارح فيكون بالطاعات ، والعبادات التى أمرنا بها مثل الصلاة التى سميت ذكراً قال تعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ (٣) .

- ولما لم يكن الذكر باللسان عبادة بدنية ، أمرنا المولى عز وجل بالاكثار منه دون التقيد بالزمان ، أو المكان · قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ (٤) وقال عز وجل : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (٥) ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٨ ·
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٩١ ·
(٣) سورة الجمعة : الآية ٩ ·
(٤) سورة الأحزاب : الآية ٤١ ·
(٥) سورة الأحزاب : الآية ٣٥ ·
(٦) سورة المنافقون : الآية ٩ ·

ودوام الذكر - كما يقول ابن القيم رضي الله عنه - سبب لدوام المحبة ، ومن أفضل الذكر ، ذكره بكلامه ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١) ويؤيد ابن القيم - فى أن المقصود بالذكر فى الآية الكريمة هو القرآن - جمع من المفسرين ، وذلك لأن المسلم لتوكله على الله يعيش فى الدنيا عيشاً طيباً .

كما قال تعالى ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ والكافر بالله يكون حريصاً على الدنيا ، طالبا للزيادة أبداً ، معيشته ضنك ، وحالته مظلمة » فا لذكر بالقرآن الكريم - فضلا - عن كونه عبادة وتقربا إلى الله عز وجل . فهو - أى القرآن - شفاء لما فى الصدور ، والنفوس ، والقلوب من أمراض وآفات وعلل .

ومن أذكار النبى ﷺ التى كان يقولها عند الكرب ، أو إذا حزبه أمر « لا إله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ، ورب الأرض ، رب العرش الكريم » (٢) .

وذكر رسول الله عليه الصلاة والسلام هذا من الكلمات الخبرية اللفظ الانشائية المعنى . كقول سيدنا يونس عليه السلام ، وهو فى بطنه الحوت « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فقوله « لا إله الا أنت » اعتراف بتوحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية يتضمن أحد نوعى الدعاء ، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، وهو الله لا إله إلا هو . وقوله : ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ اعتراف بالذنب ، وهو يتضمن طلب المغفرة ، فإن الطالب تارة يسأل بصيغة الطلب ، وتارة يسأل بصيغة الخبر » (٣) .

ولما كانت هذه الدعوة - دعوة سيدنا يونس عليه السلام - متضمنة

---

(١) سورة طه : الآية ٢٤ .
(٢) الأذكار
(٣) مفرج الكروب لابن تيمية .

شرطين هما التوحيد ، وطلب المغفرة بعد الإقرار بالذنب كانت دعوة مستجابة · فقد فرج الله تعالى بها كرب ذى النون عليه السلام قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) المؤمنون الذين يدعون بدعوة سيدنا يونس عليه السلام · كما قال عليه الصلاة والسلام : « دعوة أخى ذى النون « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته » (٢) · وقد علمنا رسولنا الكريم سيدنا محمد ﷺ ، ما نقوله ، عند الإصابة بالهم أو الحزن · فقد قال عليه الصلاة والسلام « من أصابه هم أو حزن فليدع بهذه الكلمات ، يقول : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك · ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك · أسألك بكل اسم هو لك · سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك · أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن نور صدرى ، وربيع قلبى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى » فقال رجل من القوم إن المغبون لمن غبن هؤلاء الكلمات · فقال أجل فقولوهن وعلموهن · فإنه من قالهن التماس ما فيهن أذهب الله تعالى حزنه وأطال فرحه » (٣) .

والإسلام دين يحض على السعى ، والعمل ، والكفاح فى سبيل العيش الكريم ، ما دامت وسيلة هذا العيش فى الإطار المشروع إسلامياً وعلى المسلم فى سعيه وكفاحه الاستعانة بالله تعالى ، والتوكل عليه والتفويض فى جميع ألوان نشاطه وكده ، تاركا النتائج والعواقب على الله تعالى · فإذا كانت هذه النتائج كما يرجو حمد الله تعالى ، وإن لم تكن صبر ولم ييأس من مواصلة العمل · ولذلك حارب الإسلام ونهى عن المشاعر السلبية كالندم والتردد والخوف المرضى من المجهول ·

ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٨٨ · (٢) الترمذى ·
(٣) سنن أبى داود والترمذى ·

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف وفى كل خير · أحرص على ما ينفعك ، واستعن بالله · ولا تعجزن وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكـــن قل قدر الله ، وما شـــاء فعل · فإن « لو » تفتح عمل الشيطان » ·

إن منهج الإسلام فى الصحة النفسية قائم على علاج النفس باللجوء ، واللياذ إلى خالق النفس والروح والجسم سبحانه وتعالى ، مع اعتراف هذا المنهج - كما قلنا :

أولا : بالأخذ بالأسباب العلاجية الأخرى وعدم إهمال وظيفة الطب النفسى فيما يفيد النفس البشرية ·

وثانياً : يقر الإسلام بأهمية دور المواجهة ، والتعامل مع العوامل والبواعث الحقيقية للمرض النفسى سواء كانت اجتماعية أو صحية عضوية ، أو بيئية · والبحث الجاد عن حلول عملية لهذه المشكلات ورغم واقعية المنهج الإسلامى فى مجالات الصحة النفسية والإجتماعية والبيئية ، فإن الذين فى قلوبهم زيغ من العلمانيين ومن سار فى دربهم أداروا ظهورهم لنداء السماء إلى الأرض ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ·

وأمثال هؤلاء المكابرين والمغالطين ابتلى بهم التاريخ الإنسانى فى جميع عصورة ومختلف عهوده ·

ففى عصر النبوة المحمدية ، كان فريق من هؤلاء يرفضون الإيمان برسالة محمد ﷺ حتى لو تجسد لهم الإيمان فى كتاب ولمسوه بأيديهم · ولقد حكى عنهم القرآن الكريم قائلا : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى :

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧ ·

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ (١) .

نعم إنهم لا يريدون أن يؤمنوا ، لا لأنهم يفتقدون الدليل والبرهان على صدق الإيمان ، بل لأن قلوبهم مطموسة ، وعلى سمعهم وأبصارهم غشاوة فهم أعداء الحق فى كل وقت وآن ، منكرون ضوء الشمس فى رابعة النهار : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .

إن دين الإسلام ، وشريعته ، وتصوره للإنسان ، والكون والحياة ليست موجهة إلا للنفوس السوية ، والقلوب البصيرة الواعية ، فالإسلام إنما جاء ليخاطب هؤلاء ذوى الملكات والأفئدة الطيبة يقول تعالى : ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾(٤) ، ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ (٥) ، ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ (٦) ، ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِىَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ (٧) ، ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٨) .

إن العصر الحديث قد أدان الطب النفسى - فى كثير من مجالاته - وحكم عليه بالعجز والفشل . فهذا الطب الذى بلغ شأوا كبيراً فى كثير من أبحاثه لم ينقذ دولة كالسويد التى بلغت من الرفاهية المادية ، والوفرة فى

---

(١) سورة الحجر : الآية ١٤ ، ١٥ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٣٢ .
(٣) سورة البقرة : الآية ١ ، ٢ .
(٤) سورة آل عمران : الآية ٧ .
(٥) سورة يس : الآية ١١ .
(٦) سورة يس : الآية ٧٠ .
(٧) سورة ق : الآية ٣٢ ، ٣٣ .
(٨) سورة ق : الآية ٣٧ .

المنتجات الاستهلاكية . والتقدم الملحوظ فى شتى الخدمات لم ينقذها تقدم الطب النفسى من الحياة القلقة ، والمضطربة حياة كلها ضيق وتوتر ، وشكوى ، وسخط وتبرم ، ويأس . ونتيجة لهذا يهرب الناس من هذه الحياة الشقية النكدة عن طريق « الانتحار » الذى يلجأ إليه الآلاف من الناس تخلصا مما يعانونه من عذاب نفسى آليم » « إن السر وراء هذا الشقاء يرجع إلى أمر واحد هو فقدان الإيمان ، أى إيمان » (١) .

فما رأى العلمانيين والحسين والماديين .

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (٢) .

* * *

(١) مجلة روز اليوسف الإيمان والحياة ، د . القرضاوى .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١٠٧ ، ١٠٨ .

المبحث الخامس

نصوص من الكتاب والسنة تطرد الوساوس وتطمئن القلوب

قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

إن اللجوء إلى الله تعالى ، والتضرع ، والإنابة إليه ، بطاعته ، وبامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، واستغفاره ، فى كل ساعة ولحظة من حياة المسلم أمر تفرضه عقيدة التوحيد ، وشريعة الإسلام ، لأن حياة المسلم كلها ينبغى أن توجه لمرضاة الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى للهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

ولنا فى أنبياء الله تعالى ، صلوات الله وسلامه عليهم الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة .

فقد كانوا عليهم الصلاة والسلام - دائمى الاستعاذة والاستجارة بربهم تعالت أسماؤه ، وجلت قدرته .

فهذا خاتم الأنبياء والمرسلين ، المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأعلم الخلق بربه تعالى كان مما يقوله « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ

---

(١) سورة الأعراف : الآيات : ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٢) سورة الأنعام : الآيات ١٦٢ ، ١٦٣ .

بعفوك من غضبك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

وهذا هو سيدنا نوح عليه السلام . قد استعاذ بربه سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) ، وهذا سيدنا موسى عليه السلام لما أمر قومه بذبح البقرة قال قومه : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

« فأعطاه الله خلعتين إزالة التهمة واحياء القتيل ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ (٣) .

وهذه أم مريم التي قالت : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٤) ، فوجدت الخلعة والقبول ، وهو قوله : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (٥) .

وإن الله تعالى أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالاستعاذة مرة بعد أخرى فقال ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ (٦) وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ « فهذه الآيات دالة على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يستعيذون من شر شياطين الإنس والجن » (٧) .

وإنما أمر الله تعالى أنبياءه من الاستعاذة من شر الشياطين ونزغاتهم ، ووساوسهم ، سواء كانت مصدرها الشيطان أو النفس البشرية لأن هذه الوساوس في كلتا الحالتين سبب مباشر لكثير من الفتن، والحقد ، والبغضاء

---

(١) سورة هود : الآية ٤٧ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٦٧ .
(٣) مفاتيح الغيب .
(٤) سورة آل عمران : الآية ٣٦ .
(٥) سورة : آل عمران : الآية ٣٧ .
(٦) سورة المؤمنون : الآية ٩٧ ، ٩٨ .
(٧) مفاتيح الغيب .

بين الإنسان وأخيه ، أو بينه وبين نفسه · والأنبياء والمرسلون وإن كانوا معصومين من المعاصى · فربما تكون اســـتعاذتهم عليهم الصلاة والسلام من ترك الأفضل · أو الاستعاذة من صغائر الذنوب « فإنها جائز : على الأنـبياء بالسهو والعمد » [1] .

١ - ومن النزعات التى تؤدى إلى الخصومات أو التقاتل أو التصارع ما حدث بين رجلين عند النبى ﷺ « فقد استبا وأغرقا فيه فقال ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالاها لذهب عنهما ذلك ، وهى قوله « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ·

٢ - ومن الوساوس التى قد تعترى الإنسان ما جاء فى صحيحى البخارى ومسلم « عن أبى هريرة رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول : من خلق ربك · فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته » وفى رواية فى الصحيح « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق · فمن خلق الله · فمن وجد من ذلك شيئاً ، فليقل : آمنت بالله ورسوله » ·

ولخطورة الوساوس الشيطانية على حياة المسلم بآثارها السلبية وكمعوق لعبادة الله تعالى خالصة ، وكمعرقل لحياة المسلم الدنيوية فلا يمكن للإنسان أن يحيا حياة طيبة ، دينا ودنيا ، ما لم تكن النفس مطمئنة ساكنة ·

من أجل ذلك كله كان معلم البشرية ﷺ يتعهد أمته - وهو الرءوف الرحيم - بين الحين والآخر بالنصيحة والتوجيهات والإرشادات النبوية النافعة فى دنياها وآخرتها ·

روى معقل بن يسار رضي الله عنه : عن النبى ﷺ أنه قال : « من قال حين

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٤ ·

يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر . وكل به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى . فإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة » (١) .

« عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال : « إذا فزع أحدكم من النوم فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ، وعقابه ، وشر عباده ،ومن همزات الشياطين وأن يحضرون فإنها لا تضره » (٢) .

وعن ابن عباس عن النبى ﷺ : « أنه كان يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ويقول « أُعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » ويقول « كان أبى إبراهيم عليه السلام يعوذ بها إسماعيل وإسحاق عليهما السلام » (٣) .

والوسوسة كما يكون مصدرها الشيطان ، يكون - أحياناً - مصدرها الإنسان الذى اتبع الشيطان فكان من الغاوين . أو ﴿ اتَّخَذَ آلهَهُ هَوَاهُ ﴾ . وهذا الصنف من الناس أمرنا الله تعالى أن نستعيذ من شره ، ووسوسته ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بربِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * آلَهِ النَّاسِ * منْ شرِّ الوَسْواسِ الخَنَّاسِ* الَّذى يُوَسْوِسُ فى صُدُورِ النَّاسِ * من الجنَّة وَالنَّاس ﴾ .

والناس الذين نستعيذ من شرورهم هم أعوان الشيطان الذين آغواهم وأوقعهم فى شراكه .

ولقد حذر الله تعالى عباده المخلصين من الوقوع فى حبائل الشيطان لأن الشيطان عدو مبين للإنسان ﴿ إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إنَّمَا يَدْعُو حزْبَهُ ليَكُونُوا منْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٤) .

كما أن ذكر الله تعالى منجاة من شرور الشيطان ووساوسه ونزغاته ، قال

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) سورة فاطر : الآية ٦ .

عليه الصلاة والسلام « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » .

وأعوان الشيطان الذين يزرعون الشر ، وينشرون الفتنة ويثبطون همم المؤمنين يسخرهم الشيطان لأغراضه الخبيثة تبعا لكل عصر وزمن .

ففى إبان الدعوة الإسلامية ، كانوا يحاولون بشتى الوسائل والطرق الوقوف أمام انتشار الإسلام والانتصار على أعداء الدين الحنيف ، ولكن المسلمين الأوائل باعتصامهم بحبل الله المتين ، وقوة إيمانهم ، ويقظتهم لألا عيب الشيطان حالوا دون تنفيذ المخطط الخبيث .

فهذا هو نُعيم بن مسعود الأشجعى حاول أن يقتل الروح المعنوية للجماعة المسلمة وهى تهم للخروج للقاء جيش المشركين بقيادة أبى سفيان .

ويأتى نعيم بإيعاز من أبى سفيان الذى رأى أنه مهزوم من قبل المسلمين إذا التقى بهم محاربا ، يأتى نعُيم هذا إلى المسلمين ليقول " « ما هذا بالرأى ، آتوكم فى دياركم ، وقتلوا أكثركم فإن ذهبتم إليهم ، لم يرجع منكم أحد »[1] .

فلما عرف الرسول ﷺ ذلك قال : « والذى نفس محمد بيده لأخرجن إليهم ولو وحدى » .

وفى هذا الشأن نزلت الآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[2] .

وفى عصرنا الحالى لا يكف تلاميذ الشيطان عن الوسوسة والنزغ

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٧٣ ، ١٧٤ .

والهمزات ينفثون أفكارهم المدمرة بسمومهم التى تستهدف الإسلام، وشرائعه ، وأحكامه ، ومنهجه ، تارة باسم حرية النشر أو القول ، أو التأليف ، وتارة باسم الفهم المعاصر ، أو التطوير أو التجديد ، إن هى إلا أسماء اخترعتها جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ صدق الله العظيم .

﴿ رَبَّنا آمنا بما أنزلْتَ واتَّبعنَا الرَّسولَ فاكتُبنا مَع الشَّاهِدِينَ ﴾

حدائق حلوان فى شهر رمضان المعظم سنة ١٤١٧ هـ

الموافق يناير سنة ١٩٩٧ م .

* * *